

البابُ العاشر

في القضاء

• كن من السلطان كما أنت من النار ، تنتفع
منها وتتباعدها ولا تدن منها فإنك تحترق •
أبو حنيفة

كانت وظيفة الحكم في الكوفة عملاً لا يغبط عليه من وسد الأمر إليه وكان هم الولاة المقيم المقعد أن يستفضوا عليها أفعه الفقهاء .

فإذا قلبت الصفحات الماضية من تاريخها استقبلتك أسماء من الطراز العالى . .
ولى « شريح » القضاء فيها لعمر بن الخطاب ، فلعثمان بن عفان ، فلعللى ابن أبى طالب ، ليظفر منه بقوله : « أنت أفضى العرب » . وتولاه لمن جاء بعده فظل نحو ثلثى قرن فى عمله ، لم ينقطع إلا ثلاثة أعوام فى فتنة ابن الزبير حين استقال الحجاج فأقاله ، ومات فى العشرين بعد المائة من العمر وفى الثمانين من الهجرة .

وتلاه « الشعبي » . وما أدراك من الشعبي ! بعثه عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم . فلما قتل راجعاً سلمه الملك خطاباً إلى أمير المؤمنين . وقرأ عبد الملك الخطاب فإذا فيه : « عجباً من أهل ديارك ! كيف لم يستخلفوا رسولك ! ! » قال الشعبي : « يا أمير المؤمنين أراد أن يغريك بقتلى حسداً . . . »

وبلغ ذلك ملك الروم فقال : لله درأبيه ، ما أردت إلا هذا .

جلس الشعبي للقضاء نحواً من ربع قرن حتى مات سنة ١٠٤ ف خلف من بعده الأستاذ الأول لأبى يوسف ، محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى حتى سنة ١٤٧ .
وكان طبيعياً أن تشرب الأعناق إلى أبى حنيفة ليتولى منصب القضاء ، بعد أن جلس مجلس ابن مسعود فى الإفتاء ، فاتجه إليه يزيد بن هبيرة عامل مروان على العراق (١٢٧ - ١٣٢) حين قامت الفتن بالعراق فى أخريات أيام بنى أمية .

جمع يزيد بيباه ابن أبى ليلى ، وابن شبرمة ، وداود بن هند ، وولى كل واحد منهم صلواً من عمله ، وتنازل لأبى حنيفة عن جزء من سلطانه ليكون فى يده خاتم الدولة يختم به كل أمر ، وجعل له حق إنفاذ الأحكام التى يصدرها القضاة ، والخراج أيضاً ، وختم أوامر الولاة ، فرفض أبو حنيفة ، وألح يزيد وأشار أصحاب أبى حنيفة عليه بالقبول فقال : « لو أراد أن أعدله أبواب مسجد واسط لم أدخل فى ذلك ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل وأختم أنا على ذلك الكتاب ، فوالله لا أدخل فى ذلك أبداً . . . »

قال ابن أبي ليلى : دعوا صاحبكم فإنه هو المصيب .

وسجن يزيد أبا حنيفة أسبوعين وأمر بضربه بالسياط . قيل : ضربه مائة سوط وعشرة ، كل يوم عشرة أسواط ، فلم يزد العذاب إلا ثباتاً .

لكن للدولة مآرب أخرى في رضي الأستاذ ، فإن لم تفلح في أن تضمه إلى رجال الحكم فلتتمدد إليه بسبب من الأسباب : عرض عليه يزيد أن يسلكه في الطراز — (بيت المال) — لكن الأستاذ كان أسمى من الأمراء ، وأغنى عن الخلفاء ، فأبى . وقيل إنه ترك الكوفة إلى مكة سنة ١٣٠ وبقى إلى جواربيت الله بضع سنين حتى تولى الخلافة أبو جعفر المنصور .

كان العراق إقليماً ثائراً على ما وصفنا ، وكانت الكوفة عنوانه ، لا يقتصر شعبها على الخلفاء والأمراء بل يتعداهم إلى الولاة والقضاة .

روى الشعبي عن شريح أن قد جاءته امرأة تخاصم رجلاً فأرسلت عينيها فقال له : يا أبا أمية ما أخال هذه البائسة إلا مظلومة ! قال يا شعبي إن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم له ظالمون ! !

وكان ذلك أيام لم يألف الناس أن يتباكى الظالمون كما يتباكون في القرن العشرين ، كضاحك المزن ، دمع ولا حزن .

ودخل على الشعبي في مجلس القضاء زوجان فأدلت الزوجة بحجتها وكانت بارعة الجمال ، فلما فرغت من بيانها التففت القاضي إلى المدعى عليه يسأله وما دفاعك ؟

فرد الشيطان على غير استحياء بهذه الأبيات :

فَنَ الشَّعْبِي _____ رَفَعَ الطَّرْفَ إِلَيْهَا

فَنَتَنَتَ _____ بَدَلَالٍ وَبَخَطَى حَاجِبِيهَا

قَالَ لِلجُلُوزِ قَرِيبَهَا وَأَحْضَرَ شَاهِدِيهَا

فَقَضَى جَوْرًا عَلَى الْخَصْمِ وَلَمْ يَقْضَ عَلَيْهَا

وَالجُلُوزُ فِي الْفَارَسِيَّةِ ، هُوَ الْحَاجِبُ فِي الْعَرَبِيَّةِ أَوِ الشَّرْطِيُّ .

ولم تلبث الواقعة أن طوى خبرها الجزيرة فجاء أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان في دمشق . فلما دخل عليه الشعبي ذات يوم ضحك وقال : فتن الشعبي لما رفع الطرف إليها . . . » وسأل القاضي : ماذا فعلت بالرجل ؟ قال : أوجعته ضرباً يا أمير المؤمنين بما انتهكت من حرمتي في مجلس الحكومة وما افترى به عليّ ، قال : أحسنت .

كان المنصور يقول لخاصته : ما أحوجني إلى أن يكون علي بابي أربعة نفر لا يكون علي بابي أعف منهم ، قيل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الحق لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى . والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، فأني عن ظلمها غني ، والرابع صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة .

وكان ولاية البريد في الآفاق يكتبون إليه أيام خلافته بسعر القمح وكل مأكل وبكل ما يقضى به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وما يرد بيت المال ، وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب . ويكتبون إليه بما كان في كل ليلة إذا صلوا الغداة . فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك . وإن تغير شيء عن حاله كتب إلى الوالي والعامل . وإن شك في شيء مما قضى به القاضي كتب إليه في ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فإن أنكر شيئاً عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه .

لقد تغير العراق في الدولة الجديدة فأضحى مركز الدائرة بعد إذ كان مجرد قطر من الأقطار . ولقد بويغ السفاح في سنة ١٣٢ هـ - ٧٤٩ م بالأنبار ، ثم انتقل إلى الهاشمية ، وخلفه فيها المنصور سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) فبدأ له أن يبني عاصمة للدولة غير الكوفة ، وجعل يرتاد المواضع حتى وصل إلى موضع بغداد فرسمها بنفسه وحشد لها الصنائع من كل الأصقاع ، وشرع يهدم مدينة إربان كسرى وينقض القصر الأبيض للدخل الأنقاض في بناء بغداد ، ثم كف لكثرة التكاليف : وتخبر لها الأبواب من كل البلدان وبني قصره (الخلد) في وسطها وبلغ ما أنفق ثمانية عشر مليون دينار ، ثم حشر إليها العلماء والشعراء وأصحاب الآراء وأتاهها الناس

من كل فج حتى غدت بحق عاصمة الدنيا . وبلغ سكانها ، نحو المليونين في عهد حفيده الرشيد (١٧٠ - ١٩٣) - (٧٨٦ - ٨٠٨) .

هذه المدينة الكاملة التي أنشأها ، وهي بغداد ، كان يعوزها ما كمل مجد إسبارة : اسم كاسم « ليكرج » ، وما جمل مجد أثينا ، مشرع مثل « صولون » .

كان يعوز رجال بغداد الرجل الذي يضع تخوم الحضارة التشريعية عند أساطين مسجد الكوفة . فأشخصه أبو جعفر إلى بغداد فشخص إليها .

هنالك دعاه إلى ولاية القضاء في بغداد ، وقيل في الرصافة التي بناها لولده المهدي . وقيل دعاه ليوليه قضاء القضاة فيخرج القضاة من تحت يده إلى جميع كور الإسلام ، أي إلى الوظيفة التي أنشئت لأبي يوسف في عهد الرشيد .

كان أبو حنيفة يعلم قول النبي صلى الله عليه وسلم : « القضاة ثلاثة : قاض في الجنة ، وقاضيان في النار . قاض عمل بالحق في قضاته فهو في الجنة ، وقاض علم الحق فجار متعمداً فذلك في النار ، وقاض قضى بغير علم واستحيا أن يقول لا أعلم فهذا في النار » ، كما كان يعلم حديثه عليه الصلاة والسلام : « يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في ثمرة قط » ويعلم حديثه الآخر : « ويل للأمرء وويل للعرفاء وويل للأمناء . ليتمنين أقوام يوم القيامة أن نواصيهم كانت معلقة بالثريا يتجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملاً » .

وكان يعلم ما يتناقله الرواة عن عثمان بن عفان إذ نادى عبد الله بن عمر : « اذهب فاقض بين الناس » قال : أو تعافيني يا أمير المؤمنين ؟ قال : وما تكره من ذلك ، وقد كان أبوك يقضى ؟ قال : « إن أبي كان يقضى فإن أشكل عليه شيء سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن أشكل على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سألت جبريل ، وإن لا أجد من أسأله . . »

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بمصر ليدعو كعب بن ضنة للقضاء فدعاه وأقرأه الكتاب ، وكان ابن ضنة حكماً في الجاهلية ، فلما عرف ما دعى

له قال : « والله لا ينجيني الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة ثم أعود فيها بعد أن نجاني الله منها » .

ورفض حياة بن شريح القضاء بمصر فجاء بالسيف والنطع ، فلما برق السيف أبرز مفتاح داره وقال هذا مفتاح داري وقد اشتقت إلى لقاء زبي . . . ولما رأى الأمير إقباله على ربه حرمه من لقاءه وأعفاه . ودعا أبا خزيمة فأبى حتى هدده بالسيف فقبل قضاء الأمير عليه بأن يتولى القضاء .

ولما أقبل ابن أبي الأسود صاحب خراسان ليشهد عند قاضي البصرة إياس قال لإياس : مرحباً وأهلاً بأبي مطرف وأجلسه معه ثم قال له : ما جاء بك ؟ قال : لأشهد لفلان قال : ومالك والشهادة ، إنما يشهد الموالى والتجار والسوقة ! قال : صدقت ، وانصرف من مجلسه راضياً فقالوا له : إنه خدعك . إنما أراد بذلك أن يتخلص من شهادتك لأنه لا يقبلها ! !

قال : « لو علمت ذلك لعلوت رأسه بالقضيب » .

وهكذا كان القاضي في عهد عمر بن عبد العزيز نفسه بحاجة إلى ذكاء إياس — مضرب المثل في الذكاء — ليحفظ باستقلاله !

كان الشيخ يعلم ذلك . لكنه لا يتردد أمام تبعاته ، وإن ما فيه من زكاة وعلو همة لينعه من التردد وإن به لفطانة وسمواً عن الهوى تحميان عقله أن يجور .

وما تبعات القضاء شيئاً مذكوراً إذا قيست إلى تبعات الفقهاء . .

لقد كان شريح يقول : « أنا أقضى ولا أفقئ » فكان قاضياً ، لأنه لم يكن يستطيع أن يكون مفتياً .

ولكل مقام رجال ، فالقاضي يقضى في قضية بذاتها ، أما الفقيه فيشرع القواعد للقضاء وللمتقاضين أجمعين — ولهذا يربو خطأ الفقيه على خطأ القاضي مرات .

قال سحنون : « إنا لله . ما أشقى المفتي والحاكم » وقال : « هأنذا يتعلم مني ما تضرب به الرقاب وتوطأ به الفروج وتتخذ به الحقوق ! أما كنت عن هذا غنياً ؟ » ذلك بأن فتوى الفقيه — على حد تعبير ابن القيم — شريعة عامة تتعلق بالمستفتى

وغيره أما الحاكم (القاضي) فحكمه فردى لا يتعدى إلى غير المحكوم له .
 وإنما يقوم المفتى في الأمة مقام النبي ، وكما قال عليه الصلاة والسلام : « إن
 العلماء ورثة الأنبياء . والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم » .
 فليؤد العلماء إذن أمانتهم ، وليوزعوا في الناس ماورثوا من الأنبياء : وإنها لأمانة
 تنقض الظهور وتزود أقوى الأقوياء على القضاء :
 وإذا صح قول الشافعى : « من ولى القضاء ولم يفقر فهو سارق » فإن أبا حنيفة
 فقير مع كثرة ماله وغنى بالله عن العالمين .
 وإنما هى الوظيفة في خدمة السلطان يقف أمامها متسائلاً .
 ماذا عن الغد ؟

إنما هى عظات الماضى ينشرها بين يديه . والماضى مرآة المستقبل .
 ففى مطالع هذه الدولة الجديدة (سنة ١٣٣) قذف جندى بمصر رجلاً من
 الأهالى فسجنه القاضي وأخرج الوالى الجندى السجين من سجنه فلم يك من القاضي
 إلا أن ترك وظيفته . . . ومن قبل ذلك فى مصر أيضاً (سنة ٨٩) أقام القاضي
 ابن شرحبيل الحسنى الحد على كاتب الوالى لشربه الخمر فعطل الوالى قضاءه
 فاستقال ؛

وكانت تسيل بالأنبياء أعناق المطى فى الصحراء ، مثاماً تسيل الآن بالأنبياء
 موجات الهواء واهتزازات الكهرباء ، كما كان يتناولها أعضاء المؤتمر العام ، الذى
 ينعقد كل عام ، إذ يلتقى الحجاج فى جوار البيت الحرام و

استعرض الإمام الأعظم حوادث بضعة عشر ربيعاً خات من عمر الدولة
 العباسية لا يأذنون فيها بمخالفة من أمير أو وزير ويأبون إلا أن تكون كلمتهم هى
 العليا . . . وهو أدرى الناس بما يجب للقضاء من استعلاء ، وما يلقاه رجله من
 ابتلاء . وهو القائل لتلميذه نوح بن مريم إمام مرو عندما أعلمه أنه ابتلى بالقضاء
 « ورد كتابك ووقفت على جميع ما فيه وقلدت أمانة عظيمة يعجز عنها الكبار
 من الناس . وأنت كالغريق فاطلب لنفسك مخرجاً . . . » .

وعقب على ما فات بتلك الآيات التى يبعث بها القرن الثانى إلى القضاة فى كل

العصور « فإذا جلس الحصان فسو بين الضعيف والقوى والشريف والوضيع في المجلس والإقبال والكلام . . ثم كلمهما يرفق وأفهمهما كلامك ولا تعجلهما ، ودعهما حتى يفرغا من جميع ما يريدون إلا أن يأخذنا في فضل فتمنعهما عن ذلك وتبين لهما ذلك . ولا تعجل بفصل القضاء بين القربات ورددهم مجالس لعلهم يصلحون » .

استعرض أبو حنيفة ذلك كله ثم ذكر قوله : « من جعل قاضياً فهو كالغريق ، إلى متى يسبح وإن كان سابحاً » .

وراجع نفسه كرة أخرى إذ يقول لتلاميذه في داره : « أنتم مسار قلبي وجلاء حزني قد أسرجت لكم الفقه والجمته . . . فسألتكم بالله ، بقدر ما وهب لكم من جلالة العلم ، لما صنتموه عن ذل الاستئثار » .

وإن منهم من سيرفض القضاء غداً لأبي جعفر كزفر ، وإن منهم من سيرفضه بعد غد للرشد كوكيع .

فلما دعا الرشيد تلميذي أبي حنيفة وكيعاً وحقق بن غياث ليليا القضاء أبي وكيع وقبل حفص . فخاصم وكيع حفصاً حتى مات .

استعرض الشيخ ذلك وأمثاله مجهرأً مكبرأً وفي سرعة « الأفلام » . وراح يستنبط على طريقته ويقيس ويستحسن ، واستوقفه ولا ريب أن يكتب أبو جعفر إلى القضاة يلومهم إذا عارض آراءهم أو عارضتها آراء حضاره ، واستوقفه أن يكتب عنهم ولالة البريد كما يكتبون عن العمال ، واسترجع قوله عليه الصلاة والسلام : « إن قليل العمل مع العلم كثير . كما أن كثيره مع الجهل قليل » . وقوله : « تعلموا ما شئتم فلن يأجركم الله حتى تعملوا . . » .

فليتغ الأجر من الله بالعمل في سبيل الله لا في سبيل الخليفة . وإذا كان أبو جعفر يجاهر بإعجابه بالحجاج قائلاً « ليت لي مثله » ! ، وكانت سيرة الحجاج لم تلوث بأقبح مما تلوث به من قتل العلماء والتمثيل بهم حتى ليحرف عن القبة سعيد بن جبير كي يصلى وتضرب عنقه .

إذا كان ذلك أبا جعفر ، وهذا هو الخطر ، فإن أبا حنيفة يتحدى بنفسه أبو حنيفة

الخطر ، فحزم أمره واستخار ربه فخار له . ورفض ماطلبه إليه أمير المؤمنين .

وأصر إمام المسلمين وأصر أمير المؤمنين .

وحلف أبو جعفر ليفعلن . فحلف أبو حنيفة ألا يفعل . وقال : إني لا أصلح للقضاء .

قال الربيع بن يونس الحاجب : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف ؟ .

قال أبو حنيفة : أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيمانه مني .

فأمر به أبو جعفر إلى الحبس في الوقت ثم دعا به . قال : أترغب عما نحن فيه ؟ قال : أصلح الله أمير المؤمنين لا أصلح للقضاء .

قال الخليفة : كذبت .

فانطلق أبو حنيفة يقول : قد حكم على أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء لأنه ينسبني إلى الكذب ، فإن كنت كاذباً فلا أصلح ، وإن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لا أصلح . . .

وظفق أمير المؤمنين ينازله في الأمر وهو يقول : اتق الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب . ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات لاخترت أن أغرق . ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك . . . وكيف يحل لك أن تولي قاضياً على أمانتك وهو كذاب !

قيل : وداروا به في الأسواق أياماً كثيرة على أن يقبل القضاء فأبى وردوه إلى السجن . وقيل : إن الوزراء نصحوا أبا جعفر بإخراجه من السجن وجعله في منزله ومنعه من الفتوى للناس والجلوس لهم والخروج من المنزل ، فكانت تلك حالته إلى أن مات بعد قليل من الزمان ، وقليل بعد أيام معدودات .

وقالوا : إنه ضرب مائة سوط أو مائة وعشرة أو ثلاثين سوطاً . حتى سال الدم على عقبيه . فقال عبد الرحمن بن علي بن عباس عم الخليفة للخليفة : سللت على نفسك مائة ألف سيف . هذا فقيه أهل العراق فقيه أهل المشرق . فأمر له أبو جعفر بثلاثين ألف درهم . مكان كل سوط ألف درهم . فلما وضعت بين يديه رفضها

فقل له : لو تصدقت بها : قال أوجد عندهم الحلال . . . ؟

هكذا حبس الرجل الذى ظلت الحرية نصف قرن اسماً هو مسماه ، والذى عاش سبعين عاماً يصنع الحرية بيده صنعاً ويخلقها فى تلاميذه وفى تعاليمه . حبس الجسم من ذلك القلب الذى لم يحبس نوره أحد ولن يحبس قيد أو صدف . إن مقاييس هذا العالم وقيوده للناس ولأولاده ولكنها ليست للعاقرة :

* * *

تلك كانت القضية الأخيرة التى سمع فيها قول أبى حنيفة نقل التاريخ إلينا منها جملة الواقعة ولم ينقل التفاصيل . وبحسبك أن تستعرضها لتستخلص ما فيها من القضايا .

فكيف يولى الخليفة على القضاء رجلاً كذاباً إن صح قول الخليفة ، فإذا لم يصبح قامت قضية أخرى كالقضية الأولى :

كيف يتولى القضاء رجل يقذفه أمير المؤمنين .

وكيف تسخر الدولة العلماء : وكيف يخدم الأئمة الخلفاء .

كانت قد أثقلته مفاخر السنين الطويلة التى حمل فيها كرامة العلماء فى عصره وكرامة الرأى الإنسانى فى الأعصر كافة ، وكان أخوف ما يخافه على القضاء نزوات السلطة وشهوات الحاشية . وما أفتك الطعنة إذا أصابت الرأس ، فكيف يسلم زعيم الفقهاء نفسه لطغيان الأمراء . . ؟

ولئن كان فى كنف السلطان رغبة تسيل للعب ، إنها ليسيطر عليها القلق والعذاب والاسترهاب .

قالوا : دخل شريك يوماً على المهدي فقال له المهدي : لا بد أن تجيبني إلى خصلة من ثلاث : أن تلى القضاء أو تحدث ولدى وتعلمهم أو تأكل عندي أكلة . ففكر ساعة ثم قال : الأكلة أخفها على نفسى . قال الفضل بن الربيع : « فحدثهم والله . وعلم أولادهم . وولى القضاء لهم » .

لله در أبى حنيفة فيما قال لأبى يوسف عن السلطان إذ تفرس فيه أنه سبى القضاء . . . « فكن منه كما أنت من النار ، تنتفع منها وتباعد عنها ولا تدن منها فإنك تحرق وتتأذى منها ، فإن السلطان لا يرى لأحد ما يرى لنفسه . . . » .

وما رمى أبى جعفر لأبى حنيفة بالكذب إلا الخطوة الأولى : وقد خطاها ،
فإذا كان يخفى له الغد من نزوات ، وأى نذر كانت تلك النذر . . . !

لقد كان أبو حنيفة أعلى وأكبر من أن يقذفه أبو جعفر : وإن التاريخ ليعرف
أبا جعفر ويعرف أبا حنيفة ، ويشهد أن الذى صدق هو الإمام وأن الذى كذب
هو الخليفة . . . !

ولقد حمل أبو حنيفة لواء الحرية عالياً ، ورفع صوته جهورياً مدوياً - فلن
يلقى أعلام الحرية تحت أقدام الخلفاء ، بل هو كان أجدر الناس بأن يقول
للمنصور ، ما قاله الزهرى من قبل هشام بن عبد الملك : والله لو نادانى مناد من
السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت !

ولم يمر فى بال الشيخ أن يقدر له الزمان مع أبى جعفر من النجاح ، ما قدر
مع الرشيد لأبى يوسف . ولئن استطاع أبو يوسف أن يجمع بين الدين والدنيا وتعظيم
السلطان ، لقد كلفه ذلك كثيراً من عبقرياته !

وكم كان من الفروق بين العهدين وبين الرجلين وبين الرسالتين بعد ربع
قرن .

لكن لأبى جعفر من الحق على التاريخ أن يزن رأيه التاريخ . فلقد أهمته وظيفة
القضاء ، على ما أسلفنا من المقال . وما كان أعظم حاجة البلدة التى تحمل اسمه
(بغداد - مدينة المنصور) إلى أبى حنيفة ، فى حين لم يكن بأبى حنيفة حاجة إلى
تلك البلدة أو إلى الرجل الذى تحمل اسمه . وفى عصر قال فيه ابن المقفع : « الملوك
أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك » وفى عهد كان يستباح فيه من أجل
الدولة مالا يباح :

كان المنصور يريد أن يقرن مجد البسالة الزائل بمجد العدالة الذى لا يزول .
وفى سيرته من التدلى والسمو مالا مشابه له إلا فى سير أفذاذ الساسة والمؤسسين .
كأنما تأبى السماء على الأرض أن تستوى أشيائها وتنبت ٥ أو تأبى الطبيعة على النفس
أن تستمر فى تحليقها السماوى ، فتربطها بطبائع الغاب . والظفر والناب .

فى هذا الرجل عدالة عمرية وفيه خيانات دونها الكثير من الخيانات . ! !

مع زوجته (أروى) أم المهدي ، فجعل لها أن تختار قاضياً في خصوصتها واختارت قاضي مصر غوث بن سليمان . فحمل القاضي إلى العراق وولدت خادماً لها ليخاصم الخليفة في مجلس القضاء . فقال غوث لأبي جعفر : «إن رأي أمير المؤمنين أن يساوي الخصم في مجلسه؟ فأنحط عن فرشه وجلس مع الخصم وأقر بشروط لها في كتاب الصداق ، وقضى القاضي ضده .

وكانت آية إعجابه بحكم غوث ابن سليمان أن أمر باحتباسه ليتولى قضاء الكوفة بدلا من قضاء مصر واعتذر غوث بغربته فردّه إلى ضفاف النيل .

وكتب إلى سوار بن عبد الله قاضي البصرة أن ينظر في أرض اختصم عليها أحد قواده مع رجل من تجار البصرة . وكانت الأرض في يد التاجر . وكان أبو جعفر يرى أن يدفعها إلى القائد . فأبى القاضي ، فكتب إليه : « والله الذي لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القائد » ، فكتب إليه سوار : « والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجها من يده إلا بحق » . واستقبل أبو جعفر تحدى سوار وجهارته بصياح الفرح فقال : « ملأتها عدلا . وصارت قضائي تردني إلى الحق » .

واستقضى الليث بن سعد إمام مصر بل قيل إنه عرض عليه ولايتها فأبى : واستقضى يحيى بن سعيد الأنصاري إذ استقدمه من المدينة إلى الهاشمية . واستقضى عبد الله بن وهب . فلزم ابن وهب داره واتخذ منها نجباً ! . . . فهدم الوالي عليه بعض داره واطلع عليه أسد بن سعد وهو يتوضأ في صحن الدار فتأججه : « ألا تخرج إلى الناس فتقضى بكتاب الله وسنة رسوله ! » فرفع رأسه وقال : « إلى هنا انتهى عقلك ؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء وأن القضاة يحشرون مع السلاطين ؟ »

وسمع الناس ابن وهب يقول : يارب يغدو غثتك إخواني غداً علماء حكماء فقهاء ، وأقدم عليك قاضياً ، لا يارب ولو قرضت بالمقاريض . . . ! « وألح أبو جعفر على عمرو بن عبيد ورجاله (المعتزلة) ليحملوا معه تبعات الحكم فرفضوا .

كان أبو جعفر بناء مثالياً من بناء الدول وافداً من الميدان — والسنة في

الميدان سستان — فيه عزمات الفتوة والتفادات المحنك . فأخذت يسراه تبطش
بخصوم الدولة ، وانطلقت يمناه فى بسط وإيناس ، تحمل ميزان المعدلة فى
الناس . . .

كان سخاؤه من أجل الدولة مضرب المثل ومن أجلها أيضاً كان شحه
مضرب الأمثال ، حتى لىسمى بالدوانيقى أو (أبى الدوانيق) . والدائق $\frac{1}{4}$ درهم .
طلب إليه سوار (القاضى) أن يسوى أجر كاتبين لسوار — مرتب أحدهما
أربعون درهماً ومرتب الآخر عشرون — فكتب أبو جعفر إليه أن ينقص ذا
الأربعين عشرة ، وأن يزيد ذا العشرين عشرة ! وإنما أراد سوار أن يلحق صاحب
العشرين بصاحب الأربعين !!

ولما علم أن ابنه المهدي وهب عشرين ألف درهم لشاعر ، استرجع من الشاعر
سنة عشر ألفاً !!

وقال له : إن المهدي غر خدعته ولا يعرف قيمة المال !

ومع ذلك تجده يمنح الرجل من بنى العباس مليون درهم لىجعل له داراً
ومكاناً . . .

وبينما يصيح بأنه ملاً الأرض عدالة ، ويجمع حوله التواقين إلى العلم وعشاق
الحكمة ، إذا بنفسه تسول له أن ينقض العهد الذى عاهد عليه يزيد بن هبيرة
بعد مفاوضات ظل الشهود يختلفون فيها أربعين يوماً ، فلما انصرف يزيد من
مجلسه قال أبو جعفر : عجباً ممن يأمرنى بقتل مثل هذا . . . !

لكن القاتل أبو جعفر . فلا عجب إذا كان القاتل أبا جعفر . . . لقد قتله
وقتل معه ولده داود قبل أن يجف مداد العهد و (فى العهد وفاء لا غلر) !

ودعا إلى قصره أبا مسلم الخراسانى الذى أخرجه وأخاه من محبتهما فى الكوفة
من بضع سنين لىمنحه ويمنح أخاه من قبله دولة تبقى إلى سنة ٦٥٦هـ فى بغداد ،
وخلافة تبقى إلى سنة ٩٢٣هـ بمصر ، دعاه إلى قصره مبيتاً له بليل ، حتى إذا كان
بين يديه وثب به عبيده فقتلوه .

ولما هزم عمه عبد الله بن على قائد الجيوش العباسية المظفرة احتفى عبد الله

بأخيه سليمان بن علي بالبصرة فأعطاه المنصور أماناً حتى سلم الأخ أخاه . لكن المنصور حبسه حتى مات وقتل أنصاره .

فلما عرض الأمان على محمد بن عبد الله جمع مخازي أماناته فكتب إليه : « أما أمانك الذي عرضت فأى الأمانات هو ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي ؟ أم أمان أبي مسلم ؟ والسلام... »

قيل له : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعتو . قال : لأن بني مروان لم تبل رملهم بعد ، ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء ، فليس تتمهد هيتنا في نفوسهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة .

فهى السياسة إذن تدفعه إلى البطش وتعميه عن المغفرة ، والغدر عنده مصلحة عليا ، والبطش عنده حكمة بالغة .

لكنه لم يك يختار ويغدر حيث لا تلزمه السياسة أن يخيس بعهده .

شرط لزوجته أروى ألا يتزوج عليها ولا يتسرى ، ولما هم بالزواج من سواها حجته بعهده ، فكان يكتب للفقهاء تلو الفقهاء ، بالحجاز والعراق يطلب في كتاب الشرط رخصة فلا يجد . حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد؟! فهو فيما بينه وبين الله صاحب عهد! أما في السياسة فعهده للدولة يدور وجهه مع صالحها حيث كان ، فإذا أمن الأذى عليها تراءى لك البشر الذي يستقبل به القضاء ضده ، والنصح العنيف له . . .

كان يستقبل عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة بالترحاب وينشد فيه :

« كلكم يمشى رويد .

كلكم طالب صيد .

غير عمرو بن عبيد » .

وكان عمرو شيخاً جريئاً يطلق لسانه في الملوك وفي الصحابة ! قال لأبي جعفر يوماً : « إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها . واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده . . . » فوجم أبو جعفر فقال حاجبه الربيع بن يونس : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . قال عمرو للخليفة :

« إن هذا وأشار إلى الربيع — صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً وما عمل واره بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه » قال أبو جعفر: فما أصنع؟ قلت لك خاتمي في يدك فتعال وأصحابك فاكفني . قال عمرو : لا . أدعنا بعد لك تسخ أنفسنا بعونك . يبابك ألف مظلمة اردد منها شيئاً نعلم أنك صادق ...

ودخل عليه سفيان الثوري فأغلط له القول . فسأله أبو جعفر فأجاب : ثم قال : فما قولك أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ومال أمة محمد بغبر لإذنه . وقد قال عمر في حجة حجها وقد أنفق ستة عشر ديناراً هو ومن معه : « ما أرانا إلا وقد أجبنا بيت المال » وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار وأنت حاضر ذلك وأول كاتب كتبه في المجلس عن إبراهيم عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود (سلسلة الكوفة) أن رسول الله قال : « رب متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه ، له النار غدا . » فقال له أبو عبيد الكاتب : أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا ؟ فقال له سفيان : « سكت فإنما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون » . ثم خرج سفيان فقال أبو عبيد : ألا تأمرني بقتل هذا الرجل فوالله ما أعلم أحداً أحق بالقتل منه . قال أبو جعفر : « اسكت يا أنوك (أحمق) فوالله ما بقي على الأرض أحد اليوم يستحي منه غير هذا ومالك بن أنس » .

كانت حالة أحكام عرفية في دولة لم تكد تستقر بعد ، يحشد لها القوى من كل حذب وصبوب ! ولقد أمر أمير المؤمنين أبا حنيفة ولم يطع ، فهي عنده الثورة ، وحلف عليه فلم يطع فهما ثورتان . بل إنه ليحلف على عدم تنفيذ حلف الحنيفة : فهي عنده ثورات .

لقد كان يخطب في نفس العام الذي دعي فيه أبو حنيفة للقضاء فيقول : إنما أنا سلطان الله في الأرض ! لقد كان السلطان الذي في يده أضعاف ما كان بيد الملك الذي قال بعد قرون . « أنا الدولة » ونعني به لويس الرابع عشر . وكانت خطبه ملأى بدعوى الحق الإلهي في الخلافة . كان يطربه ويطرب بني العباس أن يقال للرجل منهم : ابن عمك رسول الله !! حريصين على أن يكون

ملكهم قائماً على رضا الشعب لكنهم لا يقبلون أن يراجع كلمتهم أحد، وأشدهم في هذا أبو جعفر حتى حتى له بنو هاشم أنفسهم هامهم العوالى . .

قال مالك : « دخلت على أبي جعفر ورأيت غير واحد من بني هاشم يقبل يده المرتين والثلاث ! ورزقني الله العافية من ذلك فلم أقبل له يداً ! »

ومن أجل ذلك تراه إذ قيل إنه منح أبا حنيفة عشرة آلاف فرفضها، يرجو ألا يذيع في الناس أنباء العطاء والإباء ، ففي الرفض ثورة أو استعلاء ، وهو لا يقبل الثورة ولا يطبق الاستعلاء . فكيف يعرض عليه القضاء فيقف في وجهه مرة إثر مرة يقول : لا . . .

لكن ما هال أبا جعفر من رفض أمره جعل حقاً على أبي حنيفة أن يأتي وأن يصير على الإباء .

فالدولة التي لا تأذن بأن « يخضع السلاح للوشاح » كما يقول المثل اللاتيني ، ويضرب فيها القضاء ، هي أخرى الدولات بأن يجانبها رجال الوشاح وهم العلماء ورجال القضاء . و « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » . كما قال عليه الصلاة والسلام .

رفض أبو حنيفة القضاء بين يدي أبي جعفر وبين يدي ابن هبيرة وضرب بالسياط ، وكانت أمه إلى جواره تقول : يانعمان إن علماً ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه . فأجابها : « يا أمه لو أردت الدنيا لوصلت إليها إليها ولكني أردت أن يعلم الله أني صنت العلم ولم أعرض نفسي فيه للهلكة » .

وأدخل السجن فلم يقبل أن يأكل من طعام الخليفة وبعث إلى ولده حماد يقول : قد علمت أن قوتي في الشهر درهمان من سويق (الناعم من الحنطة أو الشعير) . وقد حبسته عني فعجله .

ومكث في السجن أياماً معدودات ثم صعدت روحه إلى بارئها .

هكذا تعدى أبو جعفر الإلحاح إلى الإكراه ، وتعدى الإكراه النفساني باليمين ، إلى الإكراه الجثامي بالسجن ، وتعدى ذلك كله إلى التعذيب والضرب . فأى جناية تلك يستحق بها عذاب الله وحساب التاريخ . . . ومهما قيل عن

نبالة الغاية فإنها لا ترحض عنه الوصمة والمذمة . فإذا كان الضرب أو السجن أو الألم النفسى أو الجثمانى قد سبب موت الشيخ وهو فى السبعين فيا هول ما يلقي به ربه أبو جعفر . . . !

كان التجنيد للقضاء نهجاً نهجه الخلفاء من قبل المنصور ومن بعده .
وقديماً كان عمر بن الخطاب يقول حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام : « إن خروجه قد أدخل بالمدينة وأهلها فى الفقه وما كان يفقههم به » ولقد كلم أبا بكر فى أن يحبس له حاجة الناس إليه فأبى ذلك عليه . .

لكن عمر لم يفكر فى سجن معاذ كما سجن أبو جعفر أبا حنيفة ، وإنما تداول الفاروق مع الصديق فى إيقاظه بالمدينة لحبسه عن السفر كما كان عمر يفرق الصحابة فى الأمصار ويحبس زيد بن ثابت عنده لأن أهل المدينة « محتاجون إليه فيما يجدونه وفيما يحدث لهم فيما لا يجدونه عند غيره » . والفرق بين الخليفين كالفرق بين التوفيق والاندفاع ، بين رجل الله ورجل الملك ، وبين خليفة الصديق وخليفة السفاح .

عرض المأمون القضاء على تلميذ أبى يوسف ، معلى بن منصور غير مرة فأبى : وعرض قضاء بغداد على تلميذ محمد ، موسى بن سليمان الجوزجاني ، فامتنع فأجله سبعاً وهدده إن لم يقبل ليعذبه وليحبسه فقال له : « يا أمير المؤمنين : قد صح عندى أنك إذ عرضت على أحد الأخوين الصالحين سهل بن مزاحم حيث كنت بمرو فامتنع عليك فعاقبته ثم ندمت فقلت لا أكره أحداً على العمل بعد ذلك فرأيتك لا تكرهنى » . فجعل المأمون يقول : أخوين صالحين بمرو . فتفكر ساعة ثم قال للجوزجاني . قم انصرف .

ولما كان بمصر دعا على بن معبد للقضاء فامتنع ، فرجاه فى أن يولى أخاه بدلاً منه كما يستعين هو بأخيه المعتصم ، فاستغفاه ابن معبد .

ولقد جرت ولاية القضاء فى الوسط العلمى على أنها ابتلاء يفرع منه العلماء ، فزع الأصحاء ، من الوباء ! كما جرت على الألسن العبارات التقليدية : « ابتلى بالقضاء . وامتنح بالقضاء » . حتى ليسترجع الناس ويترحمون على من اختاره الوالى لقضائه كأنما أصابه الله بقضائه !!

ولى عبد الرحمن بن حجية قضاء مصر وبلغ الخبر أباه في فلسطين فقال :
إنا لله وإنا إليه راجعون ! هلك الرجل !

وهذان قاضيان ووال يتداولون في شأن القضاء على أنه (شفير جهنم) !

كتب عمر بن عبد العزيز إلى واليه ليجمع بين إياس بن معاوية والقاسم
ابن ربيعة فيولى القضاء أنقذهما . فلما اجتمعا قال إياس للوالى : أيها الرجل سل
عنى وعن القاسم فقيهى البصرة الحسن وابن سيرين — وكان لا يجلس إليهما ،
وكان القاسم يفعل ذلك — فعلم القاسم أنهما إن سئلا أشارا إليه فقال : لا تسأل
عنى ولا عنه . فوالله الذى لا إله إلا هو إن إياساً أفتقه منى وأعلم بالقضاء .
فإن كنت كاذباً فما ينبغى أن تولينى . وإن كنت صادقاً فينبغى لك أن تقبل
قولى . قال إياس للوالى : إنك جئت برجل فأوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه
منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف . فقال الوالى : « أما إذ فهمتها
فأنت لها . . » واستقضاء . .

وهذان مذهبان يتلاومان : ولى القضاء ابن سريج فعتب عليه ابن خيزان
بقوله : « هذا الأمر لم يكن في أصحابنا . . وإنما كان بلية في أصحاب أئى
حنيفة » .

بل إنه ليس بلية فحسب . ولا شفير جهنم فحسب . ولكنه : « ذبح بغير سكين » .
ولى سحنون قضاء أفريقية وسنه أربع وسبعون سنة فلما دخل على ابنته قال
لها : « اليوم ذبح أبوك بغير سكين » فعلم الناس قبوله القضاء .

ولئن عجت لاعتبار ولاية القضاء ذبحاً بغير سكين ، إن العجب ليوفى
على الغاية من فهم السامع للمراد بهذا التعبير دون تفسير !

وهذا ابن مسكين ، من تلاميذ سحنون ، يتولى القضاء إذ تكاد السيوف تسلمه
للحتوف .

جلس إبراهيم بن الأغلب أمير أفريقيا وبحضرته عيسى بن مسكين
فسأله :

ما تقول في رجل قد جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء وألم به شعث

هذه الأمة ، فامتنع ؟ قال : يلزمه أن يلى . قال الأمير : تمتنع . قال : تجبره على ذلك بجملد . قال الأمير الداهية : قم فأنت هو ! قال : ما أنا بالذى وصفت وتمنع ! ! فأخذ الأمير بمجامع ثيابه وأدنى السيف من نحره ، فتقدم بعد أمر عظيم واجتماع الناس عليه على اختلاف مذاهبيهم .

ولما عرض الرشيد القضاء على المغيرة بن عبد الرحمن فقيه المدينة بعد مالك — وكانت جائزته أربعة آلاف دينار — قال : « والله يا أمير المؤمنين لأن يختنقنى السلطان أحب إلى من القضاء » . فقال الخليفة السميع : ما بعد هذا شئ وأجازه بألفى دينار .

وكذلك الذى يؤثر أن يختنقه السلطان ، هذا الذى قيل إنه يؤثر أن يدعو الله على نفسه فيقبضه الله إليه .

سأل الأمير قاسم بن ثابت بن حزم أن يلى القضاء فامتنع . فأراد أبوه أن يكرهه عليه فسأله أن يمهلّه ثلاثة أيام يستخير الله تعالى . فبات فى الأيام الثلاثة ! فكانوا يرون أنه دعا على نفسه .

ودعى ابن خيزان للقضاء فامتنع فختم عليه الباب عشرة أيام حتى احتاج إلى الماء فلم يقدر عليه إلا بمناولة الجيران من الكوة ! فقال الوزير الذى حبسه : « ما أردنا بالشيوخ أبى على إلا خيراً . أردنا أن يعلم الناس أن فى مملكتنا رجلاً يعرض عليه القضاء شرقاً وغرباً وفعل به مثل هذا وهو لا يقبل » .

وعرضت الجوائز على الإمام الطبرى فرفض ، وعرض عليه القضاء وولاية المظالم فرفض ، وأشار عليه صحبه قائلين : لك فى هذا ثواب وتحبى سنة قد درست . فنهزم قائلًا : « كنت أظن أنى لو رغبت فى ذلك نهيتمنى عنه » .

ولما أبطأت عليه النفقة من مدينة آمل حيث كان أبوه ينفذ إليه الشئ بعد الشئ ، أثر أن يفتق كمى قميصه فيبيعهما .

وأكره القائم بأمر الله الفيروز أبادى على أن يتقلد له النظر فى الأحكام والمظالم شرقاً وغرباً فامتنع ، فوكل به ، فكتب إليه : « ألم يكفك أن هلكت

حتى تهلكنى معك ؟ فبكى القائم بأمر الله وقال : هكذا فليكن العلماء إنما أردنا أن يقال إنه كان فى عصرنا من وكل به وأكره على القضاء فامتنع . وقد أعفيناہ :

صنع العلماء ذلك - وأمثاله كثيرة فى التاريخ الإسلامى - خشية أن يزلهم الشيطان فيخطئوا أو يفرط عليهم السلطان ويطغى ، بل بلغ التخرج بالبعض أن يردوا شهادة الرجل إذا خرج لقدم الأمير استمسكاً بجرمة القضاء كى لا تثبت الدعوى بشهادة من يخاف الأمراء .

* * *

هؤلاء العلماء الأفذاذ قد نشأهم آثار الفضل التى خلفها لهم سلف صالح فى قمة أسائته أبو حنيفة النعمان ، يحملون آثاءهم فى وجه التاريخ مفاخرين ، كما حملوا رءوسهم على أكفهم مخاطرين ، وكما صنع أبو حنيفة فى عهد القوة القاهرة ، والدولة المسيطرة ، والمستبد الذى لا يغفر أن تعصى رغبته ، ويكتسح سلطانه الأمراء والقواد والعلماء والأئمة ! . . :

فلم يكن عدلاً لهذا الجبروت إلا ذلك الاستعلاء . ولا كفواً لهذا الطاغية العظيم إلا ذلك الإمام الأعظم .

وبهذا كان الدرس رائعاً ونافعاً للعلماء ولأئمة العلماء كلما ذكره ابن حنبل بكى وترحم على أبى حنيفة بعد ما ذاق ابن حنبل من إرهاب فى محنة خلق القرآن .

هنالك وضع نفسه رابع الأئمة حيث وضع نفسه أول الأئمة .

لم يقبل ابن حنبل أن يقول إن القرآن مخلوق . . ودعا نائب المأمون إليه العلماء . كما طلب المأمون ، يسألهم فوروا ولم يجيبوا ، أما ابن حنبل فقال : هو كلام الله لا أزيد على هذا . . فوجه به إلى المأمون بطرسوس ثم إلى الرقة ، وكان المأمون قد مات ودفن بطرسوس ، بعد أن أوصى خليفته المعتصم بأن يحمل الناس على القول بخلق القرآن ، فرد ابن حنبل إلى بغداد مصفداً . ومكث فى حبسه ثمانية وعشرين

شهراً وفي رجليه أربعة أصفاد .. وأخيراً حمل إلى المعتصم وإلى جواره قاضيه ووزيره والمحرض الأكبر في فتنة خلق القرآن أحمد بن أبي دؤاد وطائفة من العلماء، لينظروهم أياماً ثلاثة ، فلما كان اليوم الثالث ، تقدم الجلادون يضربونه ، كل منهم سوطين والمعتصم يقول للجلاد : شد قطع الله يدك . ولما لم يجد العذاب فيه تقدم المعتصم إليه يقول : إني والله عليك لشفيق . . ونخس ابن حنبل ناخس بالسيف وقال أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم ..

وقال قائل يا أمير المؤمنين دمه في عنق أقتله ؟ وجعل آخرون يقولون : يا أمير المؤمنين أنت صائم . وأنت في الشمس قائم !

كانوا يخشون صيامه وقيامه ، ويخافون الشمس ، ولا يخافون جهنم التي يوعدون

ثم قال المعتصم : ويحك يا أحمد ما تقول ! وعاد يقول للجلاد : أوجع قطع الله يدك ! فجعلوا يوجعون . وعاد يقول : أجنبي . ويقول للجلادين : أوجعوا .. حتى فقد ابن حنبل وعيه ، فلما أفاق وجد الأصفاد قد فككت ، وقال له أحد الحاضرين : إنا كييناك على وجهك . وطرحناك على ظهرك ودسناك .. وجيء به والدم يتزف منه ، وكان صائماً وأبى أن يشرب ، فقام وصلى حينما حضرت الصلاة في الظهر والدم يسيل منه : قالوا : كيف تصلى كذلك . قال : « صلى عمر وجرحه يثقب دماً » .

تعلم ابن حنبل على أبي حنيفة ، وتعلم آخرون على ابن حنبل ، كزميله البويطي إذ حمل من مصر إلى بغداد ليقول مثل ما دعى لقوله ابن حنبل فأبي ومات في أصفاده ، وقتل الواثق أحمد بن نصر لنفس الأسباب .

وتعلم العلماء على أئمتهم فكرم الله بهم الإسلام في كل مقام .

سمع عز الدين موسك من أمراء دولة بني أيوب بمصر عن الإمام القاسم الشاطبي إمام القراءات فدعاه ليمثل أمامه . فبرم الشاطبي بالدعوة وبعث إليه برقعة فيها :

قل للأمير نصيحة لا تركنن إلى فقيهه
 إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه
 ترى هل يذكر الذاكرون اسم الشاطبي وهم يسلكون (شارع الموسيقى) إلى
 أقدم جامعة في العالم ! نعى الجامع الأزهر . ! لكأنما : خطت يد التاريخ من ذلك
 الشارع تمثالا لكرامة العالم ، وإن أطلقت عليه اسم الأمير .

* * *

وفي عهد الأيوبيين أيضاً ولي السلطان نجم الدين أيوب على قضاء مصر شيخ
 الإسلام أبا محمد الغزبن عبد السلام . ورأى الشيخ أن يباع أمراء الدولة باعتبارهم
 ممالك وتضاف أثمانهم إلى بيت المال ! فهاجوا وأرادوا قتله ، لولا أن حمته منهم
 رعاية السماء وحمتهم منه عناية السلطان ، فاشترأهم السلطان بماله ودفع إليه الثمن
 ليصرفه في وجوه البر كما يرى .

وكان أحمد بن طولون صاحب مصر يعظم بكار بن قتيبة القاضي الحنفي فيجئ
 إلى مجلسه ولا يحس بكار بمقدمه إلا إذا جاء إلى جنبه ، فلما طالبه بلعن الموفق
 (ولي عهد الخليفة العباسي) توقف وقال : ألا لعنة الله على الظالمين .

وقيل لابن طولون إنما قصدك بهذا القول . فطالبه ابن طولون برد الجوائز التي
 أجازها بها فأخذها كما هي بخواتمها وسجنه في دار اكتريت له . فكان يجلس في
 طاق ويحدث الناس بإذن التمسوه من ابن طولون .

فلما عرضت لابن طولون علته التي مات فيها وجه إليه يستحله ، فقال
 للرسول : قل أنا شيخ كبير وأنت عليل والموتى قريب والله الحاجز بيننا .

ومات ابن طولون فكان بكار يقول : مات البائس .

وكما اجتمع الناس حول بكار في سجنه اجتمع آخرون ليملى عليهم السرخسي
 من حبسه : في جب السجن في أوزجند : إذ نصح الخاقان فأسخطه فحبسه .

وتعالى العلم بالعلماء عن أن ينحنوا أمام الأمراء . فلما أصيب بالفالج شيخ
 الحنفية ببغداد عبد الله بن الحسين الكرخي ، كتب أصحابه إلى سيف الدولة في
 حلب ليعينه . وبكى الشيخ إذ علم : ودعا الله قائلاً : اللهم لا تجعل رزقي إلا من
 حيث عودتي .

واستجاب إليه ربه فمات قبل أن تصل إليه عشرة آلاف درهم .

وسأل السلطان علي بن الحسن النيسابوري : لم لا تجيء عندي ؟ فقال : « أردت أن تكون خير الملوك إذ تزور العلماء ولا أكون شر العلماء حيث أزور الملوك » .

ولما تهيأ للحج شمس الدين الخيالي وأخبره الصدر الأعظم بتعيينه للدرس قال له شمس الدين « إن أعطيتني وزارتك وأعطاني السلطان سلطنته لا أترك هذا السفر » !